مستقبل الحركات السياسية الإسلامية وتحديات ما يسمى بالحرب على الإرهاب

توطئة:

إذا كان حدث الحادي عشر من سبتمبر 2001 قد وضع في المقدمة العامل الثقافي وأبرز أهميته في تسيير العلاقات الدولية، فالواقع أن هذا الحدث والتطورات التي جرت بعده ربما تكون قد أضافت لهذا العامل زخمًا واضحًا، ولكنها بالتأكيد لم تخلقه من عدمٍ، خاصة إذا ما كنا معنيين في المقام الأول بتسيير العلاقات بين الغرب والشرق.

فإبراز الفوارق الثقافية والاختلافات الحضارية كأداة لإلصاق ظاهرة الإرهاب بثقافة الإسلام ليس بالأمر الجديد؛ فبعض الباحثين يؤكد أن أزمة الثقة في الإسلام وأزمة المعرفة به تعودان إلى زمن العصور الوسطى. فمنذ العصور الوسطى لم يتم تناول الإسلام من قِبل الغرب، في الغالب الأعم، بعيدًا عن إطار التحيزات المسبقة والمصالح السياسية. فتاريخيًّا كان الإسلام يُدمغ بالغموض والكفر والتطرف والعنف، وحديثًا أصبح العرب بصفة خاصة والمسلمون بصفة عامة يُنظر إليهم كموردين –ليس فقط للنفط– وإنما أيضًا للإرهاب(1).

ورغم هذا الواقع، فإنه لا يمكن إنكار أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر وما تلاها من إدعاء السلطات الأمريكية أن عربًا ومسلمين شاركوا بالتخطيط والتحريض والتنفيذ في العدوان الذي وقع، قد ساعد في اندلاع حملة، جديدة بالغة الاتساع هذه المرة، من العداء والشك والتحريض ضد "جميع" المسلمين؛ والخطير في هذه الحملة أن عنصرًا رئيسًا فيها أضحى هو الادعاء السافر بأن الحضارة الإسلامية تحمل في نسيجها بذور العنف والإرهاب، وأنها تمثل بذلك الخصم الأكبر والنقيض الكامل لكل ما هو حضاري وإنساني... أي لكل ما هو غربي في عرفهم؛ فإلقاء مسئولية ما جرى على الإسلام واتباع منحى تلوين الثقافات واتهام الحضارات أدخل الأمة الإسلامية في بؤرة الحملة التي ما زالت تقودها الولايات المتحدة ضد ما أسمته بالإرهاب الدولي. ويأتي على رأس قائمة المتهمين من عناصر "الأمة" بالإرهاب الحركات الإسلامية بكافة ألوانها؛ حيث أعلنت الولايات المتحدة قائمة للجماعات الإسلامية الإرهابية ما زالت تتسع كلما ابتعدنا عن حدث الحادي عشر من سبتمبر ولا يبدو أنها في سبيل إلى تضاؤل مع مرور الوقت.

ومن ثم يهتم هذا التقرير باستشراف مستقبل الحركات السياسية الإسلامية بعد أن فتح حدث الحادي عشر من سبتمبر

وتداعياته ملف الإرهاب الدولي ووضعها في موقع الصدارة من هذا الملف؛ ولأن لواء قيادة هذه الحملة يكاد ينعقد للولايات المتحدة منفردة فإن أي استشراف لمستقبل الحركات الإسلامية في مواجهة الحرب ضد الإرهاب لابد وأن يسبقه متابعة لتطورات الموقف الأمريكي فيما يتعلق بالحركات الإسلامية خاصة، والعالم الإسلامي عامة، كذا رصدًا لموقف الحركات الإسلامية تجاه الادعاءات والاتهامات الأمريكية.

(1) أحداث الحادي وعشر من سبتمبر وتطور الموقف الأمريكي من الحركات الإسلامية والعالم الإسلامي:

لعل من أهم ما تداعى على أثر هجمات الحادي عشر من سبتمبر إعلان الولايات المتحدة الأمريكية أنها تضع على قمة أولوياتها الاستراتيجية والأمنية خلال سنوات عدة مقبلة محاربة ما أسمته بالإرهاب، واستطاع المحللون أن يضعوا أيديهم على بعض المعاني الخطيرة التي تنطوي عليها هذه السياسة المعلنة.

أول هذه المعاني هو حرص الولايات المتحدة منذ البداية على أن تقدم هذه الهجمة "المحلية" عليها وكأنها هجمة على "الإنسانية" كلها، ومن ثم عملت على التعظيم من هذه القضية وأصرت على أن يقدمها العالم على كل ما عداها من قضايا قد تهمه بالأساس، فأضحى العالم وكأنه رهينة لهذه الحالة المزاجية الأمريكية، فمن المفترض ألا يكون مهمومًا إلا بما تهتم به الولايات المتحدة، وهو في اللحظة الراهنة هو الحرب على الإرهاب(2).

أما المعنى الثاني الخطير فهو أنه على الرغم من أن الولايات المتحدة تسعى إلى أن تجعل من الإرهاب همًا عالميًّا مشتركًا، إلا أنها تصر على أن تنفرد هي بتعريف الظاهرة، والأخطر هي أنها رفضت أن تلتزم بتعريف واضح للظاهرة، وقدمت تعريفًا مخلًا كونه مليئًا بالنزعات الانتقامية البدائية؛ حيث يشتمل على كل ما يتصادم مع المصالح الأمريكية تحديدًا سواء كان هذا التصادم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، هذا فضلًا عن كونه تعريفًا فضفاضًا يكتنفه غموض شديد حول ماهية العدو وضبابية كثيفة حول الهدف من الحرب(3).

أما **المعنى الثالث والأخطر** فهو أن الولايات المتحدة باتت تستخدم هذا التعريف الأحادي لتحدد منفردة من تعدهم إرهابيين، ومن ثم لتحديد الحلفاء والأعداء من الأنظمة والشعوب، ولتحدد كذلك ما هو مرغوب من الثقافات وما هو مستهجن؛ بحيث صار ممكنًا –وفقًا للقراءة الأمريكية– اتهام بيئة دينية وثقافية وحضارية بعينها بأنها مفرخة للإرهاب(4)؛ ففي خطاب حالة الاتحاد في 29 يناير 2002 واجه بوش العالم بأنه "ليس هناك أمة معفاة من المبادئ الأمريكية الحقة والثابتة للحرب والعدالة، واحترام هذه

المبادئ هو من الأمور التي لا يمكن التفاوض حولها". والمعنى المباشر لذلك هو أن الولايات المتحدة، وليس أي دولة أخرى في العالم، هي التي لها أن تقسم العالم إلى معسكر للخير بقيادتها ومعسكر للشر، يضم كل من يخاصمها، وأنها هي أيضًا التي لها أن تقرر ما يجب عمله مع معسكر الشر وفقًا لمعايير تعامل ترتضيها هي ومؤسسة على ما تعتبره حقها في حماية مصالحها باستخدام كل سلاح وبأي كيفية ممكنة، حتى لو كانت هذه الرسائل الممكنة تقع كافة خارج إطار الشرعية الدولية[5].

ولقد ترجمت الولايات المتحدة هذه الرؤية في ممارسات عملية على أرض الواقع، كان مؤداها تخصيص العالم الإسلامي مجالًا للحرب على الإرهاب[6] بتجاوز كل ما هو مستقر من قوانين وتنظيمات متعارف عليها في الساحة الدولية، فوقع العالم الإسلامي تحت ضغط أمريكي متحرر من الالتزام بكل الأعراف الدولية منبثقًا عن رؤية أمريكية للعالم الإسلامي، مفادها أن المنتمين إليه لا يعدون أن يكونوا واحدًا من اثنين: (1) إما أن يكونوا ذوى خيارات دينية، ولا يهم في شيء أن يكونوا "معتدلين" أو "متطرفين"، فيكفي أن يكون الدين هو أصل التوجه؛ ذلك أن المتطرفين والمعتدلين سواءً وفقًا للرؤية الأمريكية الراهنة والخلاف بينهم هو فقط في توزيع الأدوار؛ فالمتطرفون يستخدمون العنف وسيلة للعدوان على أمريكا، والمعتدلون لا يكنون لأمريكا أي مشاعر إيجابية، فهم حقيقة يمارسون نفس العدوان مستخدمين طرقًا تبدو سلمية. (2) وإما أن يكونوا ذوى خيارات مدنية علمانية ولكنهم على درجة عالية من الاستبداد والفساد، ومن ثم هم سبب مباشر في صناعة ما يسود العالم الإسلامي من تخلف وفقر وفوضى وتذمر، وهي البيئة التي تفرخ التعصب والإرهاب وفقًا للرؤية الأمريكية، كما أنهم –وفقًا لهذع الرؤية– لم يعودوا مؤهلين لنشر وتمكين النموذج الأمريكي، ولا للاستمرار بكفاءة في حماية المصالح الأمريكية، كونهم يخضعون لتأثير الشارع، ذي الطابع الديني التقليدي[7].

ولقد ترتب على هذه الرؤية الأمريكية للعالم الإسلامي والمؤسسة على تعريف مخل للإرهاب مجموعة من النتائج الهامة. فمن جانب أول تم تصنيف كل الجماعات الإسلامية في العالم بوصفها إرهابية رغم التباينات الحادة الموجودة بينها؛ فالتعريف الأمريكي للإرهاب يتسع ليشمل، ليس فقط الحركات الإسلامية الجهادية التي تنتهج العنف سبيلًا لتحقيق أهدافها، ولكن أيضًا الحركات الإسلامية السلمية التي تؤمن باستخدام القنوات السياسية الشرعية لتحقيق أهدافها وكذلك حركات المقاومة المسلحة والتحرر الوطني الإسلامي، فضلًا عن المنظمات والجمعيات

الأهلية الإسلامية ذات الأهداف والغايات الإنسانية والإغاثية.

ومن جانب ثانٍ فلقد نتج عن هذا التعريف الفضفاض للإرهاب أن ضمنت الولايات المتحدة قائمتها للقوى المستهدفة من حملتها على الإرهاب ما أسمته بالدول الراعية للإرهاب ولقد تضمن التقرير السنوي الأمريكي للإرهاب الصادر في 21 مايو 2002 سبع دول راعية للإرهاب منها خمس دول إسلامية هي سوريا والعراق والسودان وليبيا وإيران[8]، وأكد بوش في خطاب حال الاتحاد في 29/1/2002 أن أحد الأهداف الرئيسية للإدارة الأمريكية هو منع الأنظمة الراعية للإرهاب من تهديد الولايات المتحدة، مشيرًا إلى أن ثمة معسكرات للإرهابيين في 12 دولة[9]، كما صرح في اجتماع للاتحاد الديمقراطي الدولي في واشنطن في 2002/6/10 أن الولايات المتحدة تعارض النظم الاستبدادية وأنها ستسعى لإسقاطها وتقديمها للعدالة، وأشار إلى أنه يؤمن أن مهمته هي قتال ذلك العدو الوحشي الشرير لمصلحة العالم[10]، فحسابات الإدارة الأمريكية تفترض إمكانية ظهور تحالف بين منظمات إرهابية وحكومات عربية أو إسلامية، وأن يتم هذا التحالف بتوظيف أسلحة دمار شامل ضد الولايات المتحدة[11]. ولقد أشار بوش صراحة إلى ذلك عندما صرح بأن انتشار الأسلحة البيولوجية والكيماوية والنووية في "الدول" و"الجماعات" المعادية للديمقراطية يشكل خطرًا كبيرًا ومتزايدًا[12].

ومن جانب ثالث –وتأسيسًا على القراءة الأمريكية للعالم الإسلامي– أضحى أحد أهدافها الرئيسية اصطناع أصدقاء وحلفاء لها ولثقافتها ولمصالحها في هذا العالم؛ فإحداث تغييرات جوهرية في التركيبة السياسية والثقافية الراهنة في العالم الإسلامي أضحى هدفًا استراتيجيًّا للولايات المتحدة يضع هذا العالم في مواجهة موجة استعمارية جديدة، ذلك أن وجود الولايات المتحدة في المنطقة بقوتها وعتادها أضحى يبدو معلقًا على شرط واقف هو أنها لن تخرج من المنطقة، ولن توقف إجراءاتها في استخدام القوة إلا إذا تخلص العالم الإسلامي من كراهيته وعدائه للغرب، وذلك على ما يبدو يكون من خلال تقبل الحرية الدينية بوصفها حقًّا أساسيًّا لكل البشر؛ فالشرط الواقف الذي باطنه نية السيطرة غُلِّف ظاهريًّا بقيمة التسامح؛ فدافع الحرب على الإرهاب وفقًا للتبرير الأمريكي هو طبيعة السلوك المتطرف للمسلمين الذي هو نتيجة مباشرة لثقافة دينية تحتضن التعصب[13]. فإجمالًا يمكن القول إذًا أن الحرب الأمريكية على الإرهاب تطول الحركات الإسلامية والأنظمة الإسلامية والإسلام ذاته كحضارة وثقافة.

ورغم الأهمية القصوى للنتيجتين الأخيرتين المترتبتين على القراءة

الأمريكية للعالم الإسلامي في ضوء تعريفها المخل للإرهاب، إلا أن النتيجة الأولى المتعلقة بالحركات الإسلامية هي التي تهمنا مباشرة في إطار هذا التقرير؛ فأحداث الحادي عشر من سبتمبر وما جرى بعدها من ردود فعل أمريكية بطشت بكل ما هو إسلامي خاصة الحركات الإسلامية هي في القراءة الأمريكية تنظيمات إرهابية تشكل قوة تدمير عالمية لابد من مواجهتها بكل حسم لحماية النظم الديمقراطية والحريات في العالم[14]، ولقد تضمن خطاب حال الاتحاد في يناير 2002 إشارة إلى حركتي حماس والجهاد في فلسطين وحزب الله في لبنان وجيش محمد في باكستان في معرض الحديث عن المنظمات الإرهابية[15]. ولقد أكد السناتور بوب جراهام رئيس لجنة المخابرات بمجلس الشيوخ أن القاعدة ليست هي العدو الوحيد للولايات المتحدة، بل إن هناك العديد من الحركات الإسلامية لديها الرغبة والقدرة على مهاجمة الولايات المتحدة، مشيرًا تحديدًا إلى حزب الله والجهاد الإسلامي مركدًا أنهما أقدر على التخطيط والتنفيذ لهجمات إرهابية من تنظيم القاعدة[16].

والملاحظة الجديرة بالاهتمام – إضافة إلى أن الرؤية الأمريكية تضع كل الحركات الإسلامية في سلة واحدة بوصفها تنظيمات إرهابية– هي أن الرؤية الأمريكية تدرج منظمات مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وعلى رأسها حركات المقاومة الإسلامية ضمن الجماعات الإرهابية؛ فلقد أسقط العقل الأمريكي عقدة سبتمبر على حركات التحرر الوطني الفلسطيني بكل ألوان طيفها السياسي، دون أدنى محاولة لتفهم عدالة القضية التي تتبناها أو لإدراك أن الاحتلال في ذاته عمل إرهابي لم تعد تمتلك هذه الحركات في مواجهته أي وسيلة فعالة للمقارنة غير ما تعتبره الرؤية الأمريكية المرتبكة عنفًا وإرهابًا[17]؛ فبعد حدث الحادي عشر من سبتمبر لم يكن من السهل على العقل الغربي عامة، والأمريكي خاصة أن يصنف العمليات الاستشهادية الفلسطينية التي يسقط فيها "مدنيون" إسرائيليون على أنها نضال وطني، وهنا كانت إسرائيل جاهزة بالتفسير البديل، وهو تفسير ينزع عن هذه العمليات صفة المقاومة المشروعة للاحتلال ويصمها بالإرهاب؛ وبالتالي تصبح إبادة إسرائيل للشعب الفلسطيني دفاعًا مشروعًا عن النفس وحربًا ضد الإرهاب على شاكلة ما تسعى إليه الولايات المتحدة[18].

ولقد نجحت إسرائيل مدعومة بقوة اللوبي الصهيوني في توظيف حدث الحادي عشر من سبتمبر باستثمار مناخ الغضب والإحباط الذي خلفه لتحويل الخطاب السياسي الغربي عامة، والأمريكي خاصة في اتجاه معاداة العرب والمسلمين، فاستعدوا الغرب على الإسلام، ورسخوا فكرة الصراع الحضاري الحتمي[19]. ثم

إنها نجحت أيضًا في استغلال حالة الهياج الأمريكي هذه ضد كل ما هو إسلامي لتستعدي الولايات المتحدة ليس فقط على حركات التحرر الوطني الفلسطيني عامة والإسلامية منها خاصة، بوصفها حركات إرهابية ولكن لتستعديها كذلك على الدول المؤيدة للنضال الشريف لتلك الحركات، فكان إنذار الرئيس بوش لكل من تسول له نفسه تأييد المقاومة الفلسطينية، أو تقديم أي دعم لها على أساس أنها تصبح بذلك طرفًا راعيًّا للإرهاب ومشجعًا له؛ مما يدرجها بالضرورة ضمن الدول المستهدفة في إطار حملة القضاء على الإرهاب[20].

ولعل أهم ما نجحت فيه إسرائيل باستغلال خصائص المرحلة الدولية الراهنة هو إنجازها تقاربًا أمريكيًّا إسرائيليًّا غير مسبوق تحت تأثير ضغوط وإيحاءات إسرائيلية مزيفة مؤدادها أن هناك توازنًا بين الدور الذي تقوم به أمريكا في الحرب على الإرهاب والدور الذي تزعم إسرائيل أنها تؤديه في مقاومة ما تسميه الإرهاب الفلسطيني والعربي؛ فإسرائيل تقدم نفسها لأمريكا بوصفها الحليف الأوثق في مقاومة الإرهاب؛ فهي المعرضة لخطر الإرهاب الفلسطيني والعربي والقادرة على ضربه، وهكذا اندفعت الولايات المتحدة نحو إسرائيل، ليس فقط لتجدد تحالفًا استراتيجيًّا قديمًا وإنما لتبنى تحالفًا جديدًا له هدف مشترك هو ضرب وتصفية البنية الأساسية للإرهاب في الشرق الأوسط[21]. ولقد استغلت إسرائيل هذا التحالف بالفعل لسحق وتحطيم الفلسطينين دون رحمة ولمطالبة السلطة الفلسطينية بضرورة إنهاء كافة أشكال الانتفاضة بنسبة 100%؛ وتحديدًا لتفكيك حركات المقاومة الإسلامية حماس والجهاد ولاعتقال كوادر ونشطاء الحركتين[22].

نخلص من ثم إلى أن الرؤية المرتبكة للإدارة الأمريكية بعد الحادي عشر من سبتمبر ترى العالم بوصفه منقسمًا بين إسلامي وخير أمريكي، أو بين إرهاب إسلامي وديمقراطية غربية؛ فلقد عممت الولايات المتحدة قراءتها لنظام طالبان والقاعدة على الثقافة الإسلامية ومجمل حركات الإسلام السياسي بما فيها حركات التحرر الوطني، فماذا كان رد فعل الحركات الإسلامية تجاه هذا الموقف الأمريكي؟

(2) موقف الحركات السياسية الإسلامية من الاستثمار الأمريكي لأحداث الحادي عشر من سبتمبر:

وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر في لحظة من لحظات الفوضى الشاملة على مستوى الفكر والحركة في العالم الإسلامي، ولقد انعكست هذه الحال على كيفية قراءة العالم الإسلامي للحدث ولتداعياته عليه؛ ففي مرحلة أولى قدرت بعض الأنظمة أن إعلان الاستنكار وإرسال بعض المعلومات يكفي لاسترضاء الولايات المتحدة، ثم في مرحلة لاحقة تصور

البعض الآخر أن حرب الولايات المتحدة على الإرهاب ستقف عند حدود أفغانستان والعراق، ولن تتعدى بعض الضغوط المقبولة على دول أخرى مثل السعودية ومصر والسودان وباكستان، والمعضلة هنا أن فوضى العالم الإسلامي قد شوّشت على قدرته على فهم أن ما يتعرض له هو هجمة استعمارية شرسة، لا تختلف في مضمونها عن كل الهجمات الاستعمارية التي تعرض لها هذا العالم على مدار تاريخه؛ فهي تنطوي على استخدام القوة لاستغلال الموارد، وإن كان هدفها النهائي هو تطويع العالم الإسلامي ثقافيًا وحضاريًا ليتكيف مع إرادة المستعمر؛ وواقع أنه لا توجد قوة استعمارية تعلن صراحة أنها بصدد ممارسة الاستعمار لا يعفي العالم الإسلامي من مسئولية عدم الفهم[23].

أما موقف الحركات الإسلامية تحديدًا من هذا الواقع فيمكن التمييز فيه بين مرحلتين. في المرحلة الأولى والتي أعقبت حدث الحادي عشر من سبتمبر مباشرة نجد الحركات الإسلامية، على اختلاف توجهاتها، وقد وقعت أسارى التوجه العام الذي ساد العالم الإسلامي؛ فلقد سارعت الحركات الإسلامية على طول العالم الإسلامي وعرضه بإصدار بيانات تنفي فيها مسئوليتها عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر، معربة عن أسفها واستنكارها لما أصاب الأبرياء في هذه الحوادث، مؤكدة أنها ضد قتل المدنيين الأبرياء على اختلاف معتقداتهم[24]. حتى إن حركة مثل حركة المقاومة الإسلامية حماس أكدت مجددًا أن معركتها محصورة ضد الاحتلال الإسرائيلي، ومحدودة داخل فلسطين مؤكدة أن دعوة الشيخ أحمد ياسين لتهديد المصالح الأمريكية ليس مقصودًا بها توجيه أي ضربات عسكرية، ولكن فقط ممارسة ضغوط على أمريكا وتهديد مصالحها في المنطقة[25]. فرد الفعل الأولي للحركات الإسلامية كان إذًا دفاعيًّا في مجمله؛ فالحركات الإسلامية لم تتخذ رد فعل هجومي يحمل على الغرب "الكافر" اتباعًا لدعوة ابن لادن، ولكنها على العكس حاولت حماية نفسها من التأثير المحتمل لهذه المواجهة[26].

المرحلة الثانية اتسمت بقيام الولايات المتحدة ببلورة موقف واضح ضد الإسلام بصفة عامة والحركات الإسلامية بصفة خاصة؛ فبعد أسبوع واحد من وقوع هجمات الحادي عشر من سبتمبر وضعت الولايات المتحدة العالم الإسلامي في مجمله في صف "العدو"، واعتبرت الحركات الإسلامية في عمومها خطرًا لا يهدد الولايات المتحدة وحدها؛ بل العالم أجمع؛ حيث اتهمتها بالإرهاب، وباتت توسع كل يوم القوائم التي تقدمها للعالم متضمنة ما تعتبره حركات إسلامية إرهابية سواء لممارستها المباشرة للإرهاب، أو لقيامها بالمساعدة على ممارسة هذا النشاط، وهنا بلورت الحركات الإسلامية

موقفًا له سمتان. السمة الأولى- هو أنه تجاوز الدفاع الذي تبنته الحركات الإسلامية صبيحة الأحداث، وتحول إلى المواجهة بل والهجوم فأصدرت الحركات الإسلامية بيانات واجهت فيها الولايات المتحدة مباشرة بتهم محاولة إلصاق أحداث الحادي عشر من سبتمبر بتنظيم القاعدة دون تقديم أي أدلة على ذلك معلنة أن هذا يعد محاولة صريحة من الولايات المتحدة لوصم الإسلام بالإرهاب، في حين أن جوهر الإسلام وتعاليمه تحرم بصورة قطعية مثل تلك الهجمات ومتهمة الولايات المتحدة بأنها هي التي مارست الإرهاب دومًا، وأن حربها على الإرهاب هي ذريعة للقيام بأبشع الأعمال الإرهابية مجددًا[27]، ومؤكدة أن أي رد فعل عدائي تجاه الولايات المتحدة يعبر عنه المسلمين إنما هو نتيجة لسياساتها مزدوجة المعايير خاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية والحصار على العراق[28]، أما السمة الثانية لموقف الحركات الإسلامية في هذه المرحلة فهي أنه تجاوز الرؤية المشوشة التي عبرت عنها الأنظمة السياسية في العالم الإسلامي والتي تنم عن عدم فهم أو عن رغبة في عدم الفهم للأبعاد الخطيرة للحرب الأمريكية على الإرهاب فيما يتعلق بالعالم الإسلامي؛ فقراءة البيانات والتصريحات الصادرة عن الحركات الإسلامية تظهر إدراكها أن الولايات المتحدة تستغل أحداث الحادي عشر من سبتمبر، والتي ألصقتها دون دليل بتنظيم القاعدة، للصعود إلى مركز القوة الوحيدة المسيطرة على العالم عامة، ولبسط سيطرتها وهيمنتها على العالم الإسلامي خاصة[29]، وعبرت بيانات الحركات الإسلامية عن بصيرة سياسية واضحة وقراءة جيدة للموقف؛ حيث أكدت أن الاجتياح الأمريكي لن يقف عند حد وأنه سيطول حتى الدول الإسلامية المؤيدة للولايات المتحدة[30]، متوقعة أن سياسات الإدارة الأمريكية ضد "الإرهاب" لن تؤدي إلا إلى تكريس أجواء مواتية لنمو التطرف وأنها ستقضي على كل فرصة ممكنة أمام المعتدلين لخلق أجواء للحوار والتعايش[31].

ولم تكتف حركات المقاومة المسلحة الإسلامية وكذا الحركات الإسلامية الجهادية بالتعبير عن الموقف من خلال البيانات ولكنها ترجمت القناعة إلى واقع وممارسة؛ حيث واصلت حركتنا الجهاد الإسلامي وحماس العمليات الاستشهادية مؤكدين أن الكفاح المسلح ضد إسرائيل هو الخيار الوحيد وأنهما ستواصلان المقاومة وكذا العمليات الفدائية بكل الوسائل المتاحة حتى يحصل الشعب الفلسطيني على حقوقه معلنتين أنهما على وعي بالمؤامرات الدولية التي تحاك لإجهاض هذا الخيار وأنهما لن يسمحا بذلك؛ لأن الجهاد في قناعتهما هو الطريق الوحيد لتحرير الأراضي الفلسطينية[32]، في حين أعلن

السيد خالد مشعل أن مبادرات مثل الهدنة المشروطة مع إسرائيل أو القبول بدولة إسرائيلية، وهو ما كان قد أعلنه الشيخ أحمد ياسين، إنما هي مبادرات تطرح من باب المحاجة ومن باب كشف حقيقة الموقف الصهيوني، إنما الحقيقة هي أن القوة هي لغة التعامل الوحيدة مع إسرائيل؛ لأنها لا تعرف سواها[33] كما استأنفت حركة حزب الله في لبنان عمليات المقاومة ضد إسرائيل لتشديد الضغط عليها بغرض تخفيف وطأة العمليات والممارسات الوحشية الإسرائيلية في الأراضي المحتلة والتي تصاعدت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وذلك في رسالة واضحة من حزب الله مضمونها التضامن والمؤازرة بين الحركات الإسلامية التي تقاوم الاحتلال من خلال تصعيد العنف ضده[34]، ومن جانب آخر واصل قادة الجماعة الإسلامية وهي أحد الحركات الإسلامية الجهادية في مصر عملية المراجعة الفكرية التي وإن كانت الجماعة قد بدأتها قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلا أن هذه الأحداث وفقًا لتصريحات قادتها قد أدت إلى تزايد أهمية هذه المراجعات؛ فأصدرت الجماعة في يناير 2002 كتيبات "تصحيح المفاهيم"، والتي تتضمن مراجعات فكرية هامة مؤكدة في تصريحات لقادتها أن أحد الأسباب المباشرة لهذه المراجعة الفكرية هو اكتشاف الحركة أن العنف الموجه ضد الداخل لن يستفيد منه إلا إسرائيل وأمريكا والغرب، وأن الجهاد لابد أن يوجه من ثم نحو هذه الأطراف؛ فعدو الخارج هو الأولى بمثل هذه الجهود لأنه متربص "بنا وبديننا ووطننا"[35].

3- مستقبل الحركات السياسية الإسلامية:

الاستعراض السريع السابق للكيفية التي وظفت بها الولايات المتحدة وإسرائيل حدث الحادي عشر من سبتمبر والموقف الذي بلورته الحركات الإسلامية في مواجهة الحرب الشاملة طويلة الأمد التي أعلنتها الولايات المتحدة ضد ما تسميه بالإرهاب، وهي الحرب التي وضعت في بؤرتها الحركات الإسلامية في مجملها يؤكد كحدث عابر فيما يخص مستقبل الحركات الإسلامية، والتساؤلات الكبرى التي تطرح نفسها الآن في ظل التطورات الحادثة بعد الحادي عشر من سبتمبر هي: هل تمثل هذه الأحداث وتطوراتها النفس الأخير للحركات الإسلامية، أم أن هذه الحركات باقية ومستمرة؟ هل ستتراجع الحركات الإسلامية الجهادية عن العنف وتتبنى منهجًا سلميًّا معتدلًا، أم أن عنف رد الفعل الأمريكي سيدفعها إلى مزيد من العنف وسيدفع حتى الحركات المعتدلة إلى تبني العنف مجددًا؟ ما هي احتمالات التقارب أو التباعد بين الحركات الإسلامية من جانب، والتيارات الأخرى على الساحة وكذا الأنظمة السياسية من جانب آخر في ظل الهجمة الأمريكية على الظاهرة

الإسلامية بكل جوانبها، وأثر ذلك على مستقبل الحركات الإسلامية؟ وفي محاولاتهم الإجابة على هذه الأسئلة وضع المحللون سيناريوهات عديدة بعضها متوافق وبعضها متقابل.

أ- هل الحركات السياسية الإسلامية إلى زوال أم؟ أنها باقية؟

ينقسم المحللون في إجابتهم على هذا التساؤل إلى فريقين، أما **الفريق الأول**- فيرى أن الحركات الإسلامية هي إلى زوال. ويتبنى هذا الرأي الكثير من الباحثين الغربيين خاصة؛ فالفترة منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر شهدت صدور المئات من التحليلات والدراسات الغربية التي حاولت التأصيل لمستقبل حركات "الإسلام السياسي" بعد هجمات سبتمبر على الولايات المتحدة، وقد خلصت هذه الدراسات في معظمها إلى أن حركات الإسلام السياسي هي إلى زوال حتمي؛ فالمحلل الفرنسي جيل كيبل على سبيل المثال خلص في أحداث مؤلفاته "مسار الإسلام السياسي" إلى أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر ستؤدي إلى عزلة وتفتت الحركة الإسلامية مؤكدًا أن الظاهرة الإسلامية كانت فكرة أخذت وقتها وانتهت؛ في حين توصل محلل آخر إلى نتيجة تبدو حاسمة من وجهة نظر وهي أن الإسلام السياسي قد "دفن تحت ركام مبنى مركز التجارة العالمي"[36].

والواقع أنه رغم أن هذا التيار خبر زخمًا كبيرًا بين المفكرين بعد الحادي عشر من سبتمبر، إلا أن جذوره ترجع حقيقة إلى الربع الأخير من القرن العشرين، وخاصة السنوات الأخيرة منه حين تم الترويج في العديد من الدراسات الغربية إلى أطروحة "ما بعد الظاهرة الإسلامية" بما تعنيه من أن تلك الظاهرة آخذة في التلاشي، وأنها تقترب من النهاية، ورغم أن معظم هذه الدراسات عندما تصف "الظاهرة الإسلامية" التي هي في طريقها إلى زوال تستخدم مجموعة من المصطلحات كمترادفات مثل: "الإسلام السياسي"، و"الصحوة الإسلامية"، و"الحركات الإسلامية"، إلا أن العديد منها في السنوات الأخيرة من القرن الفائت حددت مقصدها من "الظاهرة الإسلامية" في الأطروحة بأنها "الحركات الإسلامية" تحديدًا، مؤكدة أن الحركات الإسلامية وما ارتبط بها من منظومات فكرية ومظاهر حركية، والتي كانت قد صعدت بوضوح منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين إنما تقترب من نهايتها، ويستند أصحاب هذه الأطروحة فيما يذهبون إليه إلى سبب رئيسي، وهو الحقيقة الثابتة التي بدأت في التبلور في السنوات الأخيرة ومؤداها تراجع غالبية الحركات الإسلامية العنيفة عن مواقفها وكذا مواقعها السابقة؛ فقاموا بتفسير هذا التراجع عن منهج العنف على أنه تحلل وانحلال ثم قاموا بسحب هذا التفسير

ليعمموه حكمًا مطلقًا بقرب نهاية كل الحركات الإسلامية على اختلاف توجهاتها[37].

أما **الفريق الثاني**- من المحللين فهم ينطلقون من نفس هذا الواقع المشاهد والمتمثل في تخلي الحركات الإسلامية العنيفة في مجملها عن العنف منهجًا في التعامل، ولكن ليشكلوا قراءة مختلفة تمامًا لمستقبل الحركات الإسلامية محورها أن الحركات السياسية الإسلامية لن تستمر وحسب، بل إنها في سبيلها إلى التنامي والانتشار؛ فيرى أصحاب هذا الفريق أن بوادر الانتقال من راديكالية العمل السياسي طلبًا للحكم، وسعيًا لإقامة نظام إسلامي بديلًا لنظم الحكم القائمة "الكافرة" وهو النهج الذي اتبعته نماذج مثل الجهاد والجماعة الإسلامية في مصر، وجبهة الإنقاذ والجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر، وطالبان في أفغانستان، والجبهة الإسلامية القومية في السودان إلى تباشير الرغبة في الانخراط في المنظومة السياسية/الاجتماعية العامة للمجتمع، سوف يؤدي إلى مزيد من الاتساع والانتشار للحركات الإسلامية ذات البرامج السياسية/الاجتماعية بعد أن استطاعت الحركات الإسلامية الجهادية تجاوز حديث العنف الذي شاب رؤاها وأساليب حركتها[38]، ويسوق أصحاب هذا الفريق دليلًا على ما يذهبون إليه أولًا- النجاح الذي أحرزته التنظيمات والأحزاب السياسية الإسلامية في السنوات العشر الأخيرة في أكثر من دولة إسلامية مثل تركيا والمغرب والبحرين وباكستان بعد أن اندمجت في عملية التطور الديمقراطي، بما يفتح الطريق في الغالب الأعم لتكرار النموذج في بلاد إسلامية أخرى[39]، ثانيًا- قدرة بعضها على إعادة توزيع فكرتها المحورية المتعلقة بدور رئيسي للإسلام في التنظيم الاجتماعي والسياسي على عديد من القوى السياسية في مجتمعاتها؛ بحيث أضحت تلك المجتمعات تشهد عددًا كبيرًا من القوى التي تتبنى نفس الفكرة ولعل نموذج الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر خير دليل على ذلك؛ فالعديد من القوى الناشطة في المجتمع الجزائري أضحت تنتمي إلى نفس أفكار الإنقاذ المحورية دون وجود مؤشرات جادة توحي بحركة معاكسة لذلك؛ بما يضع شكوكًا حقيقية حول صحة أطروحة "ما بعد الحركة الإسلامية"[40].

وإذا كان التحول بعيدًا عن نهج العنف، واقترابًا من نهج الاعتدال قد رشحه أصحاب هذا الفريق سببًا لتنام متوقع للحركات الإسلامية فإن هناك تحولًا آخر بدأت تخبره بعض الحركات الإسلامية التي تقوم بمراجعة فكرية لمنظومتها وأساليب تعاملها، يرى بعض أصحاب هذا الفريق الثاني أنه سيكون سببًا كذلك في ترسخ وانتشار الحركات السياسية الإسلامية، وهذا التحول يتعلق بإعادة

ترتيب تلك الحركات الإسلامية لأولوياتها في التعامل فيما بين قضايا الداخل والخارج؛ فبعد أن كانت مواجهة الأنظمة الحاكمة "الكافرة" في الداخل تأتي على رأس قمة أولويات التعامل الحركي لهذه الحركات أضحى عدو الخارج –إسرائيل والولايات المتحدة والغرب– أولى بتركيز الاهتمام[41]؛ فحديث الجهاد الذي يتبناه الفصيل العنيف من الحركة أضحى منصرفًا، من ثم، إلى جهاد عدو الخارج، وهكذا باتت القضية الفلسطينية على وجه التحديد هي مركز اهتمام الحركات السياسية الإسلامية، العنيفة والسلمية على حد سواء، وهي قضية كما هو معلوم تحظى بقدر كبير من التوافق العربي والإسلامي، الشعبي والرسمي، حولها، وهذا يرشح هذه الحركات لكي تنتشر، ذلك أنها من هذا المدخل، أصبحت أقرب إلى قلوب وعقول الناس في الشارع العربي والإسلامي[42].

يرى أصحاب هذا الفريق الذي يتبنى مقولة استمرارية وتنامي الحركات السياسية الإسلامية في المستقبل أن تحولات الحركات الإسلامية على المحورين السابقين (محور التحول عن العنف كوسيلة للتعامل السياسي، إلى القنوات السياسية السلمية والشرعية، ومحور التحول عن عدو الداخل إلى عدو الخارج) وإن كانت قد بدأت قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلا أن تداعيات هذه الأحداث ترشح هذه التحولات لمزيد من التطور، ومن ثم، تعضد أكثر من أي وقت مضى مقولة إن الحركات السياسية الإسلامية هي إلى استمرارية وترسخ؛ فالتحول الأول والذي مؤداه مزيد من الاندماج للحركات الإسلامية في عملية التحول الديمقراطي هو تطور أضحى مرشحًا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر لكسب دعم وتأييد المجتمع الدولي، بل والولايات المتحدة ذاتها والتي تدعي أنها تحارب التطرف والإرهاب الإسلامي، من أجل تشجيع الاعتدال والتطور الديمقراطي، وفي هذا التأييد دعم بالتأكيد للحركات السياسية الإسلامية على الأقل في مواجهة أنظمة الحكم التي تحاصر وتطارد هذه الحركات[43]، أما التحول الثاني، والذي حول نظر الحركات الإسلامية إلى قضايا الخارج فيبدو أنه مرشح ليكون سببًا في تحقيق أكبر قدر من الانتشار والشعبية للحركات السياسية الإسلامية، خاصة في ضوء حدث الحادي عشر من سبتمبر، وما لحقه من تطورات الحرب الأمريكية على الإرهاب الدولي التي بدأت بأفغانستان، وتنتهي بما لا يعرف أحد أين والتي وضعت في البؤرة أفكارًا مثل صراع الحضارات وصدام الثقافات؛ فهذه التطورات على الأرجح، ستجعل الحركات الإسلامية التي أعلنت تحولًا في اهتمامها إلى عدو الخارج –وخاصة الولايات المتحدة والغرب– مرشحة لقبول أوسع في

صفوف الشعوب الإسلامية الساخطة على السياسية الأمريكية الغربية، والتي قد ترى في هذه الحركات تجسيدًا لتحدٍ حضاري قادر على الوقوف أما الصلف الأمريكي/ الغربي الذي يستهدف إحداث تغيرات جذرية في البنية الثقافية والمنظومة الحضارية للشعوب الإسلامية.

وهكذا فإن أحداث الحادي عشر من سبتمبر، والتي قد تبدو أمام القراءة المتعجلة وبالًا على الإسلام عمومًا، والحركات السياسية الإسلامية على وجه خاص، قد تظهر للقارئ المتأني إمكانات عديدة إيجابية تعمل لصالح صعود الإسلام، ولصالح استمرارية وتنامي الحركات السياسية الإسلامية.

ب- الاعتدال أم التطرف: المنهج الذي ستنحاز له الحركات السياسية الإسلامية وأثره على مستقبل الحركات:

في قلب الحديث عن احتمالات استمرارية الحركات الإسلامية في المستقبل من عدمه يبرز موضوع اعتدال الحركات الإسلامية أو تطرفها؛ فجانب معتبر من المحللين الذين يراهنون على قدرة الحركات الإسلامية على الاستمرار والانتشار، يرهنون هذا بدوره على مدى قدرة تلك الحركات على الانتقال من راديكالية الفكر والعمل السياسي الإسلامي، إلى المعايشة والمشاركة في التحول الديمقراطي وفقًا لتعبير البعض[44]، أو على قدرة التحول من الدين والعنف إلى السياسية حسب عبارات البعض الآخر[45]، فأصحاب هذا الفريق لديهم اعتقاد جازم أن قدرة الحركات الإسلامية على الاستمرار والتواصل والتنامي تتوقف على قدرتها على الإفادة من نغمة الديمقراطية العالمية السارية، والاندماج في إطارها؛ فالتداعيات العاصفة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر بما تتضمنه من انقضاض أمريكي حاد على الإسلام والمسلمين من جانب، ولكن بما تتبناه من دعاوي تشجيع الاعتدال والتطور الديمقراطي من جانب ثانٍ، إنما تشكل وفقًا لهذا الفريق من المحللين عامل ضغط وتحدٍ للحركات الإسلامية من جهة، وعامل جذب وإغراء من جهة ثانية؛ مما يجعلها تقف في منعطف خطير: إما الارتداد للراديكالية والعنف المسلح الذي جربته بعض فصائلها زمنًا؛ كرد فعل على الهجوم الأمريكي على الإسلام، وإما الإفادة من دعاوى تشجيع الديمقراطية للاندفاع نحو مزيد من التجديد الفكري والحركي، الذي يحقق لها الاندماج في حركة مجتمعاتها العربية والإسلامية المتطلعة الآن بإخلاص إلى الديمقراطية.

ولقد أدت النجاحات التي حققها العديد من الأحزاب السياسية الإسلامية في أكثر من دولة إسلامية وكذا المراجعات التي قامت بها العديد من الحركات الإسلامية العنيفة اقترابًا من خط الاعتدال في الفكر والحركة إلى تنامي اعتقاد هذا الفريق من المحللين أن الخيار الثاني هو ما

انحازت له الحركات السياسية الإسلامية بأن الإسلام المعتدل، هو من ثم إلى انتعاش، وإن كان هؤلاء المحللون يحذرون من أن ترسخ وتنامي الإسلام المعتدل خاصة في مواجهة الحملة الغربية العاتية التي تخص على كراهية الإسلام والمسلمين لا يمكن أن يعتمد على مجرد إعلان التوبة عن العنف كإجراء تكتيكي تغلفه الرغبة في الاستفادة من المناخ الديمقراطي "المحدود" المتاح ولكن الأمر عندهم يحتاج إلى عملية مراجعة حقيقية وجذرية لأفكار وأساليب الحركات السياسية الإسلامية تكسبها مصداقية ليست لدى أمريكا والغرب الهاجم، وإنما أساسًا داخل المجتمعات العربية والإسلامية، مراجعة قوامها التواؤم مع أفكار ومفاهيم وأساليب التطور الديمقراطي؛ بغرض الاستجابة لمطالب وحاجات ملحة تنبع من داخل المجتمعات الإسلامية التي تعاني الفقر والتخلف والاستبداد وليس لمجرد الاستجابة لضغوط أمريكية غربية ترى مصلحتها في "تحديث" الإسلام والمسلمين؛ فتجديد الفكر السياسي الإسلامي وتحديث الخطاب الديني وتجديد شباب القيادات "التاريخية" للتيار وتغيير القيادات "المغامرة" التي تورطت في العنف وتقديم نماذج قيادية جديدة منفتحة ومستفيدة من موجة الديمقراطية وحقوق الإنسان وحرياته التي تعم العالم بأسره ومستغلة وسائل الإعلام والاتصال التكنولوجية الحديثة هو عند أصحاب هذا الفريق محك القدرة على الاستمرار، وفي هذا الإطار يبرز –وفقًا لهؤلاء المحللين- الدور الجوهري الذي لا يمكن أن يقوم به إلا الحركات السياسية الإسلامية المعتدلة والمستنيرة في توافق مع القوى السياسية الأخرى الناشطة داخل المجتمعات الإسلامية[46].

وفي نفس السياق يرى محللون آخرون أن اعتدال الحركات الإسلامية الذي سيرشحها للاستمرار والتنامي يتمثل في قدرتها على الانتقال من مربع الإسلام الأصولي إلى مربع الإسلام القومي؛ فالإسلاميون القوميون هم القادرون على الاندماج في النظم السياسية التي ربما كانوا يحاربونها أو يرفضونها في وقت من الأوقات، وقدرتهم على أن يعيدوا صياغة أيديولوجيتهم؛ بحيث يجدوا مكانًا لهم في النظام السياسي يرشحهم بجدارة للاستمرار والتنامي، والنموذج الذي يحتكم إليه هؤلاء المحللين هو حركة حزب الله اللبناني، الذي نجح في تسييس أنشطته فأصبح مقبولًا من قبل كل اللبنانيين، بما فيهم المسيحيين الذين ينظرون له على أنه حركة قومية قبل أن يكون حركة إسلامية، وهو ما عبر عنه الشيخ نصر الله عندما قال "لقد أصبحنا أكثر من مجرد طائفة دينية... حزب الله حركة إسلامية، ولكنه أيضًا حزب قومي، ولا يعارض النظام السياسي الذي يعترف بحقوق كل الطوائف في لبنان"، والنموذج الآخر الهام الذي يسوقه المحللون في هذا

المقام هو نموذج الحركات الإسلامية الفلسطينية، حماس والجهاد، والتي هي عندهم قادرة على الاستمرار، ومرشحة للتنامي؛ لأنها تتصرف سياسيًّا كحركة قومية قبل أن تكون إسلامية، ودليلهم هو أنها لم تنتقد عرفات مطلقًا بسبب الإسلام، وإنما كانت انتقاداتها له دائمًا لأسباب قومية تتعلق بتنازلاته لإسرائيل(47)؛ فكأن القناعة الأساسية لهذا الفريق من المحللين هو أن الحركات الإسلامية المعتدلة القادرة على الانخراط في البنية السياسية والاجتماعية لمجتمعاتها بالإفادة من البيئة المحلية والدولية المشجعة للديمقراطية هي وحدها المرشحة للتنامي والاستمرار، خاصة في ضوء الضربات الموجعة الموجهة من البيئة الدولية للحركات الإسلامية العنيفة بعد الحادي عشر من سبتمبر.

على الجانب المقابل يؤكد محللون آخرون أنه بالرغم من السياسة الدولية النشطة التي تستهدف تجفيف منابع التمويل للحركات الإسلامية العنيفة، والقبض على العناصر الفاعلة فيها. فضلًا عن الاختفاء الفعلي لزعمائها، إلا أنه لا يمكن الحسم بالاختفاء التام للجماعات الإسلامية العنيفة في المستقبل؛ فمن جانب أول يقرر هؤلاء المحللون أن تاريخ الإسلام ينبئنا بأن الحركات الإسلامية. سواء السلمية أو العنيفة –لا تموت بل هي تخمد أو تنتعش بحسب الظروف. وقناعتهم هي أن الظروف الدولية المصاحبة والتالية لحدث الحادي عشر من سبتمبر ستثير موجة عارمة من الغضب والرفض لكل ما هو أمريكي/غربي، وأن هذا سيؤدي بدوره إلى تفريخ أجيال جديدة من الرافضين المتطرفين الذين يلتفون حول راية الإسلام العنيف كرد فعل مضاد للحملة الأمريكية على الإسلام، التي تنقض بلا رحمة أو تمييز على الجميع وتضع المسلمين في سلة واحدة وتحت مطرقة واحدة؛ وهكذا تضحى الحركة الإسلامية العنيفة مرشحة لديهم للتنامي في المستقبل ولو بعد فترة من السكون بسبب وطأة ضربات المطرقة الأمريكية(48).

وبعيدًا عن التباين في قراءة تداعيات حدث الحادي عشر من سبتمبر على مستقبل الحركات الإسلامية المعتدلة والعنيفة، فيما بين فريق يؤكد أن التنامي هو للحركات المعتدلة، وآخر يقدر أن الحركات العنيفة مرشحة للصعود مرة أخرى، فإن الكل متفق على أن الحركات الإسلامية الفلسطينية لها وضع استثنائي؛ بوصفها تخوض حرب تحرير واستقلال، ومن ثم تضحى مقاومتها للاحتلال الإسرائيلي مهما بلغت درجة عنفها – مشروعة وشرعية بالنظر إلى أن العدو الصهيوني هو الذي يمثل جوهر العنف والإرهاب؛ كما أن المحللين يتفقون ثانيًّا على أن المستقبل على الأرض هو لهذه الحركات لأنها تملك رؤية صحيحة لفهم وإدارة الصراع؛ حيث تدركه على أنه

صراع بقاء وليس مجرد صراع على قطعة أرض؛ ويتفقون أخيرًا على أن المقاومة الإسلامية المسلحة في فلسطين المحتلة ستزداد في مواجهة تزايد بطش الآلة العسكرية الإسرائيلية المدعومة بالمساندة الأمريكية(49).

ويعبر المحللون عن قناعة بأنه مهما زادت عمليات الاجتياح والإبادة والتهجير فإنها لن تؤدي إلى الحد من نشاط حركات المقاومة الإسلامية المسلحة في فلسطين، بل إنه بقدر عنف المذابح الإسرائيلية سيكون عنف عمليات المقاومة، فنضال الشعوب عندهم يحكمه قانون فريد هو "قانون الخوف المتناقص"؛ حيث تتراجع وفقًا لأحكامه الرهبة من التفاوت الهائل بين القوة الذاتية وقوة الخصم، نتيجة الاعتياد على هذه المعادلة غير المكتافئة، بل وتتملك القائمين بالمقاومة روح استشهادية فريدة من شأنها أن تعوض جزءًا كبيرًا من آثار التفاوت في القوة العسكرية لطرفي النزاع(50)، وهذا ما أسماه عبد العزيز الرنتيسي أحد قادة حركة حماس بثقافة الاستشهاد التي تجذرت في وجدان الفلسطينيين المقهورين خاصة بسبب تصاعد محاولات الإذلال والمهانة بعد الحادي عشر من سبتمبر؛ مما سيعزز قدرتهم على الصمود ومواصلة الكفاح(51)، وحتى المحللون الذين يرون ضرورة أن تقوم حركات المقاومة الفلسطينية المسلحة بوقف العمليات الاستشهادية حتى تمر عاصفة الحادي عشر من سبتمبر هم يؤكدون أن هذه العمليات تمثل مخزونًا استراتيجيًّا للشعب الفلسطيني ولكن التحريض عليها دوليًّا لوصم الشعب الفلسطيني بالإرهاب تحت وطأة تداعيات الحادي عشر من سبتمبر يبرر عندهم إيقافها كآلية للتعامل، ولكن لا يسقطها من الحساب(52).

وفي النهاية، الذي يحدد مستقبل حركات المقاومة الإسلامية الفلسطينية، وإلى أي اتجاه تسير، هو قادة هذه الحركات؛ وخيار قادة حماس والجهاد الإسلامي هو الاستمرار في المقاومة المسلحة، وفي العمليات الاستشهادية، ورفض مقولة أن السلام خيار استراتيجي مؤكدين أن درس التاريخ، هو أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، لا بالمفاوضات؛ فالقوة والمقاومة هما الطريق الوحيد للحصول على الحقوق ولتحقيق الأهداف(53).

جـ- احتمالات التقارب أو التباعد بين الحركات السياسية الإسلامية من جانب والقوى السياسية الأخرى، وأنظمة الحكم من جانب آخر، وأثر ذلك على مستقبل الحركات الإسلامية:

يبدو في ثنايا حديث المحللين الذين يعلنون قناعة أن المستقبل هو للحركات السياسية الإسلامية المعتدلة أن ترجمة هذا التنامي إلى واقع سياسي يتوقف إلى حد كبير ليس فقط على قدرة هذه الحركات

الإسلامية على الاعتدال وتعبيرها عن هذا في برامج فكر وحركة؛ بما يعني رغبتها في الانخراط في البيئة السياسية والاجتماعية لمجتمعاتها، ولكن يتوقف بنفس القدر من الأهمية على مدى سماح نظم الحكم والقوى السياسية الأخرى في المجتمع لها بتحقيق هذا؛ أي على مدى قدرة الأنظمة الحاكمة على الانتقال من مرحلة حصار ورفض ومحاولة القضاء على الحركات الإسلامية؛ باعتبارها تمثل تحديًّا للحكم إلى مرحلة قبولها في إطار المنظومة السياسية والاجتماعية للمجتمع، هذا من جانب، كما تتوقف من جانب آخر على مدى قدرة القوى السياسية الأخرى في المجتمع على التواصل مع الحركات الإسلامية، بدلًا من النظر إليها باعتبارها خصمًا من رصيدها.

*** العلاقة بين الحركات السياسية وأنظمة الحكم وأثرها على مستقبل الحركات الإسلامية:**

يرى المحللون أن تحديد مستقبل الحركات الإسلامية، ومدى قدرتها على الاستمرار من جانب وعلى التمسك بنهج الاعتدال من جانب آخر، إنما يتوقف إلى حد كبير على موقف الأنظمة الحاكمة من التحولات الكبرى للحركات الإسلامية؛ فمن الملاحظ على أرض الواقع أنه في حين ترحب الأنظمة الحاكمة بتحولات الحركات الإسلامية السلمية إلا أنها في ذات الوقت تقوم بمطاردتها، ومنعها من ممارسة حقها في العمل العام[54].

وفي حين يحذر البعض من خطورة هذا الموقف السلبي والمتناقض للحكومات؛ حيث أزمة الثقة بين الأنظمة السياسية والقوى الإسلامية حتى المعتدلة منها من المتوقع أن تؤدي إلى خنق الحركات السياسية الإسلامية المعتدلة وإلى ظهور حركات إسلامية عنيفة جديدة[55]؛ فإن البعض الآخر يتوقع على العكس تقاربًا بين الحركات الإسلامية وأنظمة الحكم؛ مما يعزز بالتالي من فرص الحركات الإسلامية في البقاء والتنامي.

ومن أهم أسباب هذا التقارب المتوقع وفقًا لهذا الفريق من الباحثين هو تداعيات أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ فرغم أن قدر التقارب بين أنظمة الحكم والحركات الإسلامية وفرصه قد تناقصت بشدة في الفترة التالية مباشرة لهجمات سبتمبر؛ استجابة للمناخ الدولي العدائي الذي فرضته الولايات المتحدة ضد كل ما يتعلق بالظاهرة الإسلامية، إلا أن تقدير هؤلاء المحللين هو أن تواصل حرب الولايات المتحدة على "الإرهاب" سيفقدها كثيرًا من التعاطف الشعبي في الدول "الإسلامية" المستهدفة من هذه الحرب مما سيدفع أنظمة الحكم فيه، طلبًا للأمن والاستقرار، إلى التباعد التدريجي عن الولايات المتحدة والتقارب المتصاعد مع الحركات الإسلامية خاصة تلك التي تتحول عن العنف وعن

تكفير الأنظمة الحاكمة، وسوف يكرس من هذا التباعد بين الأنظمة الحاكمة والولايات المتحدة من جانب، والتقارب بينها وبين الحركات الإسلامية من جانب آخر توقع عدم الوصول إلى حل عادل وشامل للقضية الفلسطينية في المدى المنظور، وفي ضوء تطورات التحالف البغيض بين الولايات المتحدة وإسرائيل بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ مما يؤدي بدوره إلى تزايد الضغوط الشعبية الرافضة للولايات المتحدة والمروجة للفكرة الإسلامية، وللجماعات المعبرة عنها(56).

*** العلاقة بين الحركات السياسية الإسلامية والقوى السياسية الأخرى وأثره على مستقبل الحركات الإسلامية:**

يرى المحللون أن اشتداد الحملة الغربية ضد الظاهرة الإسلامية بكل تنويعاتها، ليس مرشح فقط لتحقيق التقارب بين الحركات الإسلامية وأنظمة الحكم؛ بما يعزز من مستقبل تلك الحركات ولكنه مرشحًا وبنفس القدر وصوب نفس النتيجة؛ لتحقيق التقارب بين الحركات الإسلامية، وجميع القوى والتيارات المعادية للسياسة الأمريكية، وعلى رأسها القوى القومية(57)؛ فمجريات الأحداث منذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر توضح تقاربًا حثيثًا جاريًا وبين الحركات الإسلامية من جانب والجماعات القومية العربية من جانب آخر يتمحور حول تصوراتها الخاصة بالعلاقة الصراعية مع الغرب، وكذا تركز اهتمامهما على قضايا مشتركة تعد القضية الفلسطينية في القلب منها.

فمن المرجح لدى هذا الفريق من المحللين أن تؤدي أحداث ما بعد الحادي عشر من سبتمبر إلى انعاش مناخ الفكرتين الإسلامية السياسية والقومية العربية، والحركات والجماعات المعبرة عنهما. ويؤكد هؤلاء المحللون أنه كما كان عدوان 1956 على مصر هو الرحم الذي ولدت منه فكرة وحركة القومية العربية؛ فإن حرب أمريكا على الإرهاب الدولي والتي تلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ستكون الرحم الذي تخرج منه فكرة "الأمة الإسلامية الواحدة" في العصر الحديث، والتي يجمع بين أرجائها وقواها الشعور بخطر واحد خارجي يتهدد الجميع دون تمييز؛ فكأن نفس الرحم تعيد إخراج فكرة وحركة القومية العربية ولكنها هذه المرة وبسبب مخاطر الحرب على الإرهاب والتي تطولها كما تطول الفكرة والحركة الإسلامية تولد متلاحمة مع هذه الفكرة والحركة الإسلامية في إطار مفهوم الأمة الإسلامية الواحدة، مما ولد حساسيات وتوترات باعدت بين الحركة الإسلامية القومية منذ منتصف السبعينيات، ومن ثم، فإن هذا التلاحم الوليد بين الحركتين مرشح لأن يضيف إلى رصيد الحركة الإسلامية خلافًا للصراع الذي من المؤكد أنه ما كان إلا ليسحب من هذا الرصيد(58).

خاتمة:

من عجيب المفارقات أن الفكر الغربي في ذات الوقت الذي صاغ فيه وصدَّر فلسفة العولمة التي تبشر بقرية كونية كبيرة واحدة تتحقق فيها الوحدة الإنسانية للمجتمع البشري، كان يصوغ كذلك نظرية صدام الحضارات التي تصنف الثقافات وتبرز الاختلافات، وهي النظرية التي تضعها موضع التطبيق الآن القوة الكبرى في عالم اليوم؛ فتصطنع الخطر الإسلامي عدوًا تشن ضده حربًا يتم فيها ازدراء فلسفة القانون الدولي والمؤسسات الدولية، وفي حين يرى البعض أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتطوراتها خاصة فيما يتعلق بالحملة الضارية على الإسلام إنما تشكل مرحلة مخاض لعالم جديد لن يكون فيه مكان للحركات الإسلامية مرددين في هذا المقام أطروحة "ما بعد الظاهرة الإسلامية"؛ فإن البعض الآخر يرى أنه من الممكن بلورة استجابة إسلامية ناجحة للتحدي الأمريكي/الغربي/ الإسرائيلي شريطة أن تكون نقطة البدء لبلورة هذه الاستجابة هو مجال الفكر؛ فتجديد الفكر الإسلامي بغرض إعادة بناء قاعدة الوسط الإسلامي الذي لا يسلم للتطرف ويتواؤم مع القوى السياسية الأخرى في المجتمع ويفيد من رياح الديمقراطية الآتية من جهة البيئة الدولية ويستثمرها قد يكون هو الطريق الوحيد الذي يمكن الحركات الإسلامية من تحييد الآثار السلبية لحدث الحادي عشر من سبتمبر وتوظيفها لصالحها؛ فآثار الحادي عشر من سبتمبر والتحديات التي تطرحها على الحركات الإسلامية والسابق الحديث عنها ظهر أن بها إمكانات عديدة إيجابية من الممكن أن تعمل لصالح صعود الإسلام وتنامي الحركات الإسلامية، على عكس القراءة المتعجلة لهذا الحديث والذي تراه كله وبالًا على هذه الحركات، السلمية والعنيفة، على حد سواء.

هوامش الدراسة:

---

(1) ألفت حسن أغا، الأصولية الإسلامية في الإعلام الغربي، كراسات استراتيجية (25)، يناير 1995، (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام)، ص2. المتابعة الدقيقة لهوامش هذه الدراسة ولما ورد بها من عناوين لكتب ومقالات توضح أن وصم الإسلام بالإرهاب يعود إلى أبعد من حدث الحادي عشر من سبتمبر بكثير.

(2) أنور الهواري، بعد مرور عام على أحداث سبتمبر: أمريكا والعالم الإسلامي، الأهرام، 2002/9/15؛ Talal Asad, Some Thoughts on the WTC Disaster, in: International Institute for the Study of Islam in the Modern World. Newsletter (9), Sept. 2002, p.1.

(3) **التقرير الاستراتيجي العربي 2001**، رئيس التحرير: حسن أبو طالب، (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، مايو 2002، طبعة أولى)، ص 151؛ السيد يس، رد الفعل السياسي والبهلوانية الفكرية، الأهرام، 2002/4/25.

(4) عبد اللطيف الحنفي، عالم ما بعد 11 سبتمبر ... بين الفوضى والغموض، **الأهرام**، 2002/9/11.

(5) السيد أمين شلبي/ أمريكا والعالم: أسئلة الهيمنة الأمريكية، في: **شئون عربية** (111) خريف 2002، ص 23.

(6) يرى بعض المحللين أن كوريا الشمالية قد أضيفت إلى قائمة الشر من باب المناورة لنفي الصفة الإسلامية عن القائمة.

انظر: أحمد كمال أبو المجد، المواجهة العربية– الإسرائيلية: من الشعور بالعجز إلى الهجوم المضاد (1)، **الأهرام**، 2002/4/20؛ وليام شنيدر، شرطي العالم على من يطلق الرصاص، أخبار اليوم، 2002/6/15.

(7) أنور الهواري، **مرجع سابق**، الأهرام، 2002/9/15.

(8) التقرير الاستراتيجي العربي، **مرجع سابق**، ص 151– 152؛ **الأهرام**، 2002/5/21.

(9) فهمي هويدي، عن دعوة تأديب الكون وتهذيبه، الأهرام 2002/2/5.

(10) **الأهرام**/ 2002/6/12.

(11) محمد السيد سعيد، ماذا بعد ستة أشهر على 11 سبتمبر؟ **الأهرام**، 2002/3/31.

(12) تصريح له في 2002/6/10 في اجتماع الاتحاد الديمقراطي الدولي بواشنطن. منشور في: الأهرام، 2002/6/12.

(13) أنور الهواري، مرجع سابق، الأهرام 2002/9/15، فوزي فهمي، الوثيقة الأمريكية والمنشور المضاد، الأهرام، 2002/4/29.

(14) تصريح لبوش في 2002/6/10 منشور في: الأهرام، 2002/6/12.

(15) فهمي هويدي، مرجع سابق، الأهرام، 2002/2/5.

(16) تصريح له لشبكة إن بي. سي. منشور في: الأهرام، 2002/5/21.

(17) عمرو الشوبكي، تناقضات المفهوم الأمريكي للعنف، الأهرام، 2002/4/17.

(18) محمد سلماوي، ردود أفعال العمليات الاستشهادية، الأهرام، 2002/6/3.

(19) سعيد رفعت، حدث سبتمبر وتداعياته على المنطقة العربية، في: شئون عربية (108)، ديسمبر 2001، ص9.

(20) المرجع السابق، ص 9–10؛ فهمي هويدي، مرجع سابق، الأهرام، 2002/2/5.

(21) أحمد كمال أبو المجد، المواجهة العربية– الإسرائيلي، مرجع سابق، الأهرام، 2002/4/20؛ صلاح الدين حافظ، إعادة إنتاج ثقافة العنف، الأهرام، 2002/5/29.

(22) محمود صادق، ما هو مستقبل الحركات الفلسطينية الإسلامية، الوطن العربي (1312) 2002/4/26، ص 24.

(23) أنور الهواري، مرجع سابق، الأهرام، 2002/9/15.

(24) طالع على سبيل المثال مواقف وبيانات الجهاد الفلسطيني وحزب الله اللبناني وعصبة الأنصار في صيدا وإخوان مصر ومجموعة عسكر طيبة في كشمير، في: التقرير الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص 112–113.

(25) خالد مشعل، على كل الحركات الإسلامية أن تدرك أن الخطر الصهيوني يستهدفها، البيان (182) ديسمبر 2002، ص 56.

(26) التقرير الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص 114.

(27) عبد اللطيف عربيات رئيس حزب جبهة العمل الإسلامي في تصريح للأهرام في: الغرب يدفعون فاتورة أحداث وسبتمبر.

لماذا؟، الأهرام، 2002/9/6؛ طالع لموقف حزب الله وإخوان سوريا وحركة الإصلاح الوطني في الجزائر وجمعيات إسلامية عدة في البحرين: التقرير الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص 115-116.

(28) طالع لإخوان سوريا: التقرير الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص 115.

(29) طالع لحزب الله: التقرير الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص 115؛ تصريح لـ د. عبد العزيز الرنتيسي (حماس) في: الأهرام، 2002/9/6.

(30) طالع لحزب الله اللبناني، التقرير الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص 115.

(31) راجع تصريح لمحفوظ نحناح: حركة مجتمع السلم الجزائرية وكذلك موقف جمعيات إسلامية بحرينية: التقرير الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص 116.

(32)راجع: الأهرام، 2002/5/28، 2002/6/10، 2002/7/8.

(33) خالد مشعل، مرجع سابق، البيان، ص 59.

(34) راجع: مبادرة حزب الله واستغلال الضغط السياسي، الأهرام، 2002/5/4.

(35) قادة الجماعة الإسلامية يحددون الأسس الشرعية وراء تحولهم للعمل السلمي (1)، الأهرام، 2002/2/9.

(36) أوليفييه روى: حرب ابن لادن كانت نتيجة أزمة التغريب والعولمة، دراسة غربية حديثة ترفض الربط بين القاعدة وحركات المقاومة في الشرق الأوسط، تقرير: أميمة عبد اللطيف، الأهرام، 2002/1/30.

(37) ضياء رشوان، نظرة إلى المستقبل، الظاهرة الإسلامية نموذجًا، الأهرام، 2002/2/1.

(38) صلاح الدين حافظ، دمقرطة الأحزاب الإسلامية، الأهرام، 2002/11/27؛ التقرير الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص 155.

(39) صلاح الدين حافظ، دمقرطة الأحزاب الإسلامية، مرجع سابق، الأهرام، 2002/11/27.

(40) التقرير الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص 156.

(41) قامت الجماعة الإسلامية بمراجعة شاملة لأفكارها وأصدرتها في يناير 2002 في أربعة كتيبات تحت عنوان "سلسلة تصحيح المفاهيم".

(42) التقرير الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص 156.

(43) صلاح الدين حافظ، دمقرطة الأحزاب الإسلامية، مرجع سابق، الأهرام، 2002/11/27.

(44) صلاح الدين حافظ، المرجع السابق، الأهرام، 2002/11/27.

(45) روبين رايت، الغضب المقدس، عرض مجدي كامل، أخبار اليوم، 2002/4/13؛ دراسة غربية حديثة ترفض الربط بين القاعدة وحركات المقاومة في الشرق الأوسط، تقرير لأميمة عبد اللطيف، مرجع سابق، الأهرام، 2002/7/30؛ التقرير الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص 155.

(46) صلاح الدين حافظ، مرجع سابق، الأهرام، 2002/11/27.

(47) روبين رايت، مرجع سابق، أخبار اليوم، 2002/4/13؛ أميمة عبد اللطيف، مرجع سابق، الأهرام، 2002/7/30.

(48) التقرير الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص 128.

(49) صلاح الدين حافظ، مرجع سابق، الأهرام، 2002/11/27؛ هذه الآراء لمحمد إبراهيم البيومي ورفعت سيد أحمد، في: محمود صادق،

"ما هو مستقبل الحركات الفلسطينية الإسـلامية"؛ الوطن العربي (1312) 2002/4/26.

(50) أحمد كمال أبو المجد، المواجهـة العربيـة الإسرائيلية. من الشعور بـالعجز إلـى الهجـوم المضاد (2). الأهرام، 2002/4/21.

(51) ورد هذا التصريح في حديث له في تحقيق: العرب يدفعون فاتورة أحـداث سـبتمبر لمـاذا؟ الأهرام، 2002/6/9.

(52) مرسي عطا الله، ضرورة مراجعة الوسائل حتى تمر العاصفة، الأهرام، 2002/5/3.

(53) تصريح لخالد مشعل في حوار له مع البيان (182) ديسمبر 2002، ص 60؛ محمد مصطفى، قراءة في ملف الانتفاضة. المقاومـة المـسلحة والعمليات الفدائية... الجدل لم يحسم بعد، الأهرام، 2002/6/1.

(54) راجع فـي مطـاردات حكـومتي مـصر وباكستان على سبيل المثال للحركات الإسـلامية داخلهما، الأهرام، 2002/6/1، وأخبـار اليـوم، 2002/6/1.

(55) رفيق حبيب، تحولات الجماعات الإسلامية تصطدم بجمود الحكومات، 2002/3/20، إسلام أون لاين. نت 3/16.

(56) التقرير الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص 154- 155؛ ضياء رشوان، تأثيرات الأزمة على مستقبل حركات الإسلام السياسي، الأهرام، 2001/11/14؛ ضـياء رشـوان، الجماعـة الإسلامية ونهاية العنف لمـاذا الآن؛ الأهـرام، 2002/7/5.

(57) مصطفى الفقي، الجفوة والفجوة، الأهـرام، 2002/5/7؛ التقرير الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص 128.

(58) التقرير الاستراتيجي العربي، مرجع سابق، ص 154؛ ضياء رشوان، تأثيرات الأزمة، مرجع سابق، الأهرام، 2002/11/14.